من الأدب النسوى :

الغزل فى شعر المرأة

للشيخ محمد رجب البيومى

— ٢ —

سنتكلم اليوم عن الغزل السافر ونعنى به ما قالته المرأة ، لتذيع غرامها على رءوس الأشهاد ، فينقله عنها البعيد والقريب ، فهى إذن لا تخشى ملامة أو مسبة ، بل تقدم جريئة على تحمّل ما يتهددها فى موقفها الجرىء .

ونعلن بادىء ذى بدء أننا لن نتعرض إلى غزل الجوارى فيما نحن بصدده من الحديث ، لأننا نبحث عن النسيب الصادق الذى يضطرم بالعاطفة المشبوبة ، ويتأجج باللوعة المشتعلة ، وجل ما بأيدينا من غزل هؤلاء لا يهدف لغير الإغواء والتغرير ، بل كثيراً ما يهبط إلى مستوى لا يرضى عنه خلق نبيل ، حتى ليجوز لنا أن نشبههن بمن ترى من ساقطات الممثلات ، حيث يشغلن الصحف الخليعة بالحديث عن رنين القبلات ، وحرارة المناق ، وما يقصدن — علم الله — غير العاقبة الذميمة والخداع الريب .

على أنك لا ترى فى شعر الجوارى مواربة أو كناية ، بل تجد نفسك أمام صراحة فاضحة ، ومنطق مكشوف ، كأن تقول إحداهن وهو أهون ما يمكننا أن نستشهد به :

إنى لأرجو أن تكون معانقى فتبيت منى فوق ثدى ناهد
وأراك بين خلاخلى ودمالجى وأراك دون مراحلى ومجاسدى

وأنا لا أنكر أن هذا تصوير صادق لما تنشده الجارية من أمل لذيذ ، فهو من هذه الناحية غزل يرتكز على الإحساس والشعور ، ولكن أدعو الشاعرة أن تبرز عاطفتها تلك ، فى سياق فنى ، يعتمد على التشبيه البارع ، والرقة المتسلسلة حتى تعارب تارتها برونق الأسلوب ، فينسى قسوة الفكرة ومرارة الهدف ، وأصدق مثال لذلك قول حفصة بنت الحاج القرطبية :

أزورك أم تزور فإن قلبى إلى ما تشتهى أبداً يميل
فتقرى مورد عذب زلال وفرع ذؤابتى ظل ظليل
وقد أملت أن تظما وتضحى إذا وافى إليك بى المقيل
تفضل بالجواب فما جميل سكوتك عن بثينة يا جميل

فواضح جداً أن هدف الشاعرة الأولى هو بعينه هدف الشاعرة الثانية ، ولكن سياق حفصة جميل فاتن ، ولا غرو فهو طراز أندلسى أخذ جماله من عصره ، واستمد رقته من أهله فجاء صافياً كرآة النهر الوديع .

ولابد أن يعلم القارىء أن التصريح فى نسيب المرأة كان فى مجموعه أقل من التلميح . وقد قرأت فى هذه الأيام أكثر ما روى لحواء من رائق التشبيب فلم أجد التصريح إلا فى حالات خاصة تخف من حدته ، وتشفع لقائلته أنهن شفاعة ، وهى فى جملتها لا تخرج عن حالات ثلاث :

فالحالة الأولى — وهى الجديرة بالإشفاق — تكون غالباً عند ما تفقد المرأة صوابها الراشد ، وفكرها المتيقظ ، فتندفع فى تيار الحب أعنف اندفاع وأقساه ، ولا تعود تفكر فى غير الشخصية المسيطرة على منافذ إحساسها ، القابضة على زمام فؤادها ، وما ظنك بمن ترسل أشعارها الذائبة ناطقة بجنونها الشق ، غير عابئة بما يلقاه بها الأقربون ، من صنوف الإيذاء والتعذيب كشقراء بنت الحباب ، فقد قاست فى غرامها الطائش ما تقشعر لهوله الأبدان ، وطالما انهال عليها والدها بالسياط المحرقة تشوى الإهاب ، وتمزق الأعضاء ، وهى بعدُ لا تنسى فى جحيمها المشتعل حبيبها يحيى بن حمزة بل تهتف :

أالضرب فى يحيى وبينى وبينه مهامه لو سارت بها الريح كلت
ألا ليت يحيى يوم عيهم زارنا وإن نهلت منا السياط وعلت

وكأنى بوالدها وقد رحمها بعض الشىء فبعث إليها صواحبها لائمات عاذلات ، راجياً أن يثوب رشادها العازب إلى وكره ، فتنسى ما تهذر به الغادى والرائح ، ولكن أمل الحباب ينطفىء خائباً حين يجد ابنته تصيح فى آذان اللائمات :

سأرعى ليحيى الحب ما هبت الصبا وإن قطعوا فى ذلك عمدا لسانيا
فقد شف قلبى بعد طول تجلدى أحاديث من يحيى نيب النواصيا

وهناك من المدنفات من لا تفرق بين النافع والضار ، فهى إذ تصطلى بجحيم الشوق اللافح ، لا تجد من تطلعه على خبيئة سرها غير والدها العنيف ؛ مع أن الأب — لوعقلت الفتاة — أول من

ينبغي أن يكتم عنه هذا النبأ المزعج ، وخاصة إذا كان من قساة البدو ، وجفاة الأعراب ، كوالد الخنساء التيحانية ، تلك التي علقت شاباً من بني خفاجة يدعى جحوشا ، وقاست في حبها العارم ما أقض مضجعها ، وشرد نومها ، فكتمت أمرها عن صواحبها ، وبعثت إلى أبيها التيحان تقول في غير اكتراث :

وإن لنا بالشام لو نستطيعه حبيباً لنا « ياتيحان » مصافيا
نعد له الأيام من حب ذكره ونحصي له « ياتيحان » الليواليا
فليت المطايا قد رفعنك مصعداً تجوب بأيديها الحزون الفيافيا

وإذن فهي لا تكتفي بإزعاج والدها ، بل تتمنى أن يقود بنفسه مطاياه مصعداً إلى جنوب الشام ليكون رسولها الأمين إلى جحوش الحبيب ، والغرام جنون فاضح ، يولد الغرائب ، ويأتي بالمتناقضات ! !

أما الحالة الثانية : فلها من الظروف والملابسات ما يبررها لدى المنصف الأريب ، إذ تكون العاشقة ثيباً مطلقة ، فلا تؤاخذ على هيامها مؤاخذة غيرها من العذارى الناهدات ، بل يُلقى لها الحبل على الغارب ، ويسلم إلى كفها الزمام . أضف إلى ذلك ما غرب عنها من خفر الكواعب ، فقد ودعته إلى غير رجعة ، يوم أن انخرطت في سلك الزوجات ، ولديك أم الضحاك المحاربية فقد أمسكت عن الشعر الغزلي ، حتى طلقها زوجها ، واحتمل عنها إلى مكان نازح ، فهاج بها الشوق واندفعت تقول :

سألت المحبين الذين تحملوا تباريح هذا الحب في سالف الدهر
فقلت لهم ما يذهب الحب بعدما ثبوأ ما بين الجوانح والصدر
فقالوا شفاء الحب حب يزيله على النور أو نأي طويل على الهجر
وما الحب إلا سمع أذن ونظرة ورجفة قلب عن حديث وعن ذكر

وسيعجب القارىء حين يجدها تكشف نقاب الحياء دفعة واحدة ، فتعبر عن الحقيقة المكظومة إذ تنشد :

شفاء الحب تقبيل وضم وجر بالبطون على البطون
ورهز تهمل العينان منه وأخذ بالمناكب والقرون

وفي رأيي أن النيرة أساس كل بلاء ، فلولا أن الشاعرة قد تضايقت كثيراً بتطليقها واقتران زوجها بغيرها ، لما رددت هذا القول الجريء . وإن شئت فانظر إلى ولادة بنت المستكفي وهي كما تعلم ، جرأة قول ، وتكبر نفس ، فقد ضرع أمام جمالها الفاتن الوزيران الأديبان ابن زيدون وابن عمار ، فهزأت بهذا حيناً ، وسخرت بذلك أحياناً ، ولكن لم تكد ترى أبا الوليد يداعب جاريتها « عتبة » حتى دبت عقارب الغيرة إلى قلبها ، وعلت وجهها سحابة قاتمة ، من الضجر والضيق ، فتركت كبرياءها وكتبت إلى عاشقها تقول :

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غصناً مثمراً بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني (بدر) الدجى لكن ولعت لشقوتي (بالمشتري)

فكيف إذن نلوم أم الضحاك وقد أبدت ولادة العظيمة ما أبدت من الغيرة والاندفاع . على أن للمحاربية الخاملة في باب النسيب ما يضعها في منزلة ولادة النابهة ، وما زلت أردد في إعجاب قولها الرائع :

حديث لو أن اللحم يشوى بحره طرياً أتى أصحابه وهو ينضج

ونعرج على الحالة الثالثة ، وهي كثيراً ما تتكرر أمامنا من حين إلى حين ، فقد تكون المرأة عاشقة صبة ، فتجاهد نفسها في إخفاء ما تكابده مجاهدة قاتلة ، ثم تمر الأعوام وراء الأعوام فإذا الشابة العاشقة تصير عجوزا شوهاء ، ذات أولاد وأحفاد ، وإذ ذاك لا تبالي بنقد ، أو تحفل بتجريح ، بل يطيب لها أن تجلس مع العذارى الناهدات ، قارئة تاريخ قلبها الحافل بالعجائب والغرائب ، دامعة على صباها الغارب ، وشبابها المرحوم ، ولا عليها في ذلك ما دام الجميع يتهمها بالهتر والتخريف ، وما دامت قريبة من القبر ، فهي هامة اليوم أو الغد ، وأي نقد يوجه إلى شمطاء شهربة ، تدب على العصا ، وتمشي بها مشي الأسير المكبل كعشرقة البدوية إذ تقول :

جريتُ مع العشاق في حلبة الهوى
ففتهمو سبقاً وجئت على رسلي
فما لبس العشاق من حلل الهوى ولا خلعوا إلا الثياب التي أبلى
ولا شربوا كأساً من الحب حلوة ولا مُرة إلا شرابهمو فضلي

ومع ما في هذا القول من الصراحة التامة ، فإنه إذا قيس بشعر الرجل كان جميل الأثر ، طيب الوقع ؛ فنحن نرى الإباحيين من فساق الشعراء كامرىء القيس والفرزدق وبشار يطنبون في ذكرياتهم الماجنة ، إطناباً تنقبض له الصدور ، ولو أننا لا نريد

أن ننشر هـذا اللون من الإفك ، لذكرنا على سبيل الموازنة ماتحمرله الوجوه ؛ غيرأننا نضع أمام القارىء أبياتاً لابن أبي ربيعة قد تواضع في سردها ، فلم يعلاها بما عُهد عنه من إفك ، وهي رغم ذلك من الإباحية في هوة لا ينحط إليها غزل الحرة ، مهما فحش وقذع . قال أبو الخطاب :

فتناولتها فــالت كغصن حركتـه ريح عليـه فمارا
ثم كانت دون اللحاف لمشغو ف معنّى بها صبوب شعارا
واشتكت شده الإزار من البهـ ـر وألقت عنها لدىّ الخمارا
حبّذا رجعها إليها يديها في يدى درعها تحل الازارا !

وإن شئت أن ترى للمرأة شيئاً من طراز عمر المكشوف فارجع إلى ما هجّناه من غزل الجوارى في صدر هذا المقال .

هذا وقد تكون الشاعرةُ مضطرة إلى التصريح بما يعجز عن بيانه اللفظ ويقف دونه الريق ، فتأتى بالمعنى الجلى ، في تركيب قوى ، دون أن يصدمها المسلك الوعر ، ويجبهُها الواقع المرير ؛ فقد راودَ توبة بن الحمير الخفاجى صاحبته ليلى الأخيلية فشاحت عنه ، وأرادت أن تفهمه موقفها النبيل ، فلم تستعص عليها قافية أو تند عنها عبارة ، بل أجابته في قوة أسر وبراعة نسج فهي تقول:

وذى حاجة قلنا له لا تبحْ بها فليس إليها ما حييت سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وحليل
تخالك تهوى غيرها فكأنما لها في تظنيها عليك دليلُ

ولعمرى قد بلغت من السمو والروعة شأواً لم يصل إليه معن بن أوس ، حين اصطدم بصخرة كصخرتها العاتية فقد كان في جاهليته يهوى أم مالك خليلته ، فأتت كمادتها إليه بعد إسلامه فقال من أبيات :

ولست كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسلُ
وعاد الفتى كالكهل ليس بقاعل سوى الحق شيئاً فاستراح العواذل

وشتان ما بين القولين وإن اتحدت الواقعة ، واتفق المراد !!

ولليلى هذه مراث جيدة في توبة وكانت تصلها بقليل من الغزل الرائق فتطرب النفوس في موقفها الحزين ، وأشهد لقد دلت على أن بنات حواء كأبناء آدم ، متانة تركيب ، وجلجلة لفظ وارتفاع مسلك ، ويهمنا أن نعرض نسيبها الدامع إذ تقولُ في معرض الرثاء :

هو المسك بالأروى الضحاك شبته بدرياقة من بحر بيسان قرقف
فيا ألفَ ألف يوم تأتى مسلّماً فألقاك مثل القسور المتطرف

وهناك من العاشقات غير ليلى مَن أبدعت كثيراً حين نهجت هذا النهج الجذاب ، وزادت فعمدت إلى الجناس الجميل إذ تقول:

كان مثل القضيب قداً ولكن قده صرف دهره أى قد

أو تقول :

هو الأبيض الريان لو ضربت به نواح من الريان زالت هضابها

وهكذا تكون الدموع مسرحاً للتشبيب البهيج !!

ولا نختم هذا الفصل دون أن نلم بنموذج من الغزل الصوفى الذى ترنمت به المرأة فنشرت أمام العيون بروداً قشيبة ، عطرة الذيول . وإذا صح مايقولون من أن الحب الصوفى في مبدئه حب إنسانى شبّ وترعرع حتى وصل إلى نهايته العلوية ، فالمرأة أشد قابلية له من الرجل ، لما نعلمه من تأثرها العميق ، وإحساسها الرقيق . ويكفى أن نستشهد برابعة العدوية رضى الله عنها فهى صاحبة اللواء الخفاق بين أخواتها المتصوفات ، ولها من النسيب الفاتن جداول صافية تبل الصدى وتنقعُ الغليل كأن تقول :

أحبكَ حبين حب الهوى وحبٌّ لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حب الهوَى فشغلى بذكركَ عمن سواكا
وأما الذى أنتَ أهلٌ لهُ فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمدُ في ذا وذاكا

ورابعة كما ينطق التاريخ قد سبقت الشعراء جميعاً إلى الغزل الالهى ففتحت بذلك الطريق لابن عربى وابن الفارض والبرعى ومن يجرى معهم في ميدان التصوف الوسيع ، ولا أدرى كيف سكت محللو الشعر القدسى فلم يسجلوا يدها البيضاء !!

(وبعد) فهذه مرآة لامعة تجلو لنا طرائف من الغزل النسوى ونحن حين نزفها إلى القراء والقارئات نتساءل في عجب : أيوجد بين شاعراتنا الآن من لها — ولو في غير الغزل — هذه الديباجة المشرقة ، والرقة المتسلسلة ؟ أم أن ذلك عهد مضى ولن يعود ؟!

(الكفر الجديد) محمد رجب البيومى